حول أصباغ البديع
وأثرها في الأسلوب

د/ عبد المحسن محمود رشوان

مدرس البلاغة والنقد

لعل وصف ضروب البديع بالأصباغ يلفت إلى القصـــد الذى من أجله شرعت القلم ، ولى فى هذا الوصف سلف يقتدى به، وإن كان يتسع عنده ليشمل ما اصطلح متأخر والبلاغيين على تسميته بالبيان .

وإذا كنت أقتدى فى الوصف فإننى أقف به عند الألوان التى تنطوى تحت « علم البديع » فى عرف المتأخرين ؛ فهم - على الرغم من انصرافهم عن التطبيق - على قدر من التوفيق طيب عندما أطلقوا لفظ البديع علماً على ألوان خاصة لا تتعداها إلى غيرها يدعمهم فى ذلك حكم بنى على الطبع استقوا عناصره من المتقدمين ذوى القدم الراسخة فى الذوق الأصيل والحس الرهيف .

ذلك أن الأثر الذى يخلعه البديع بضروبه وألوانه على الأسلوب لا يعدو أثر الصبغ ودوره فيما يراد مضاعفة جماله ، وإبرازه على نحو يلفت النظر ، ويثير الانتباه .

فالشىء الجميل فى ذاته ، قد يطمح المهتم بشأنه إلى إضفاء المزيد عليه حتى يجمل فى كل عين ويسمو فى كل قلب ، فالسوار قد يكون جميلا ، ولكنه لن يطمح إلى جمال المعصم .

وليس يضير البديع ، وأصباغه أن لا يتطاول إلى مدى أبعد من ذلك ، فثوب الحرير إذا جادت خيوط لحمته وسداه ، وأحكم نسجه ، ولم تتهيأ له يد صناع تحسن اختيار الأصباغ ، وتوزيعها ظهر للنظرة العجلى فرق ما بينه وبين

نظيره الذى جرت عليه الألوان الزواهى ، والعمارة الشاهقة قد تكون مستوفية عناصر المتانة والجودة ، من حيث مواد البناء والموقع ، والتقسيم الهندسى ولكنها تفتقد النقاش (مهندس الديكور) الذى يبرز جمال الشكل وأناقة المنظر ، فإذا رآها العارفون بكل هـــذه المايزات الطبيعية أدركوا ما يضفيه الزخرف عليها لو أنه تمشى فى جوانبها .

فهناك جمال طبيعى ، وهناك زينة تضاعف هذا الجمال ، والبديع بأصباغه وألوانه هو ذلك الحلى والزينة فى التعبير البليغ .

وهذا الدور الذى يقوم به الصبغ البديعى لم يلق قبولا عند بعض المعاصرين - وهم من القمم الشوامخ فى البحث البلاغى - ولكن الرأى حين يحتكم إلى الذوق - وميدانه جد فسيح - يصبح من حق صاحبه أن يجاهر به مطمئنا إلى أن الأمر ليس فيه مخاطرة ؛ إذ لا حجر على الذوق فى تقدير الأدب من حيث عناصر الإبداع فيه .

والذى ترتاح إليه النفس هو ما استقر عليه البلاغيون من أن البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الفصيح من غيره ، وأن المتأدب حين يصوغ عبارته يستعين فى سبيل ذلك بوسائل فى مقدمتها الحس الصافى يلتقى به اللفظ السهل المعبر الجارى على العرف العربى ليبنى منه عبارة صحيحة مستقيمة . ويرفده بما يريد متن اللغة ، ويسعفه بالعرف اللغوى وطريق البناء علما الصرف والنحو . فإذا تسامى إلى ما فوق الصحة والاستقامة - وهو بطبيعته يتسامى - إلى التأثير والإقناع أصبح حتما عليه أن يسوق عبارته ملائمة لقرائه وسامعيه من حيث قدراتهم العقلية ، ومواهبهم الفكرية مستهديا فى ذلك بدراسة متأنية لفن « المعانى » يرشده إلى خصائص التراكيب وإيحاءاتها . وبدراسة فن « البيان » فهو يهديه إلى مسالك الخيال يدخلها فى نسيج أسلوبه يشخص بها المعنويات . وينطق الجمادات ، ويخاطب بها العواطف ويداعب الوجدان . وقد لا يقنع الأديب بخطاب العواطف

ومداعبة الوجدانات بل يطمح إلى استثارتها ، وحينئذ يعمد إلى أصباغ البديع يوشى بها أسلوبه ، ويزركش بها حواشيه فيزيد حسنه حسنا ، ويضيف إلى بهائه بهاء .

ذلك ما استقر عليه رأى الكثرة الكاثرة من متأخرى البلاغيين منذ وضحت معالم فنون البلاغة الثلاثة ، وتميزت أدوارها فى صنع الأسلوب البليغ على يد أبى يعقوب السكاكى (م٦٢٦هـ) فى مفتاحه ، وبدر الدين بن مالك (م ٦٨٦هـ) فى مصباحه ، ولم يكن ذلك ابتكارا منهما بل كان لذلك جذور تمتد إلى بداية عصر التدوين المتخصص فى النقد والبلاغة . ومن ثم كان على أبى يعقوب ومن خلفه ـ إذ أدركوه ـ أن يصقلوه ويظهروه .

* * *

ولقد ثار بعض المعاصرين على تميز هذه الفنون ، وعلى القول بأن لأصباغ البديع دورا ثانويا فى الخلق الأدبى بخاصة . ومع أن لهم فى نفوسنا منزلة ، وفى قلوبنا محبة ، فإنا لا نشايعهم فى هذه الثورة ، لأن فى الحكم على أمثال هؤلاء العلماء بجفاف نبع الذوق فى طبائعهم حين مزقوا فنون البلاغة كما يقال وحددوا دور البديع ـ أقول إن فى الحكم عليهم بذلك شيئا من الجور : فقد آزرتهم فيما فعلوا هنا خاصة لمحة من الذوق لا تنكر ؛ لأنهم نظروا فى طبيعة كل فن ، وفى دوره .

مع الأستاذ الدكتور أحمد موسى

ولعل أول الثائرين على هذا الوضع أستاذنا الكبير الدكتور أحمد موسى الذى وضع كتابا بعنوان « الصبغ البديعى فى اللغة العربية » عرض فى القسم الثانى منه ألوان البديع فى صور تطبيقية، وجاء فى التمهيد لهذا العرض: «غرضنا الذى نرمى إليه من وراء هذا البحث هو إنصاف البديع من جور المتأخرين ، وإنقاذه من عسفهم بوضعه فى المكان اللائق به من البلاغة ، والاقتصاص له من هذا الحكم الجائر الذى حط من مكانته وأضعف من قوته وقلل من بهائه ،

وقضى عليه بأن يكون ذيلا من ذيول البلاغة وذنبا من أذنابها، وعرضا من أعراضها، لا يقصد لذاته، ولا يؤم لنفسه، ولا يعود على الأسلوب بالتحسين الذاتى، بل هو التابع الزنيم، واللاحق الذليل الذى لا يلقى من الإكبار والإجلال ما يلقاه الذاتى الأصيل، وقد لقى هذا الحكم رواجا من المتأخرين وصادف تأييداً لدى الشارحين والمقررين، واكتسب الأشياع، واجتذب الأنصار من الدارسين والمحصلين »(١) .

وأول ما يخطر لى وأنا أتابع هذا القول أن أتساءل :

ماذا يقصد أستاذنا بقوله : وقد لقى هذا الحكم رواجا .. الخ ؟

أيعنى أن نابتة هذا الحكم ظهرت قبل المتأخرين فلما رأوها أعجبوا وعنوا بها ؟ أم يعنى أنهم وضعوا بذرتها وروها حتى نبتت وبسقت فروعها؟

الذى يتصفح كتابه يجده يعلن صراحة أن السكاكى مهد له بغير قصد ، وأن من بعده هو الذى أكمل الشوط إلى غايته ، يقول . « إلا أننا نلحظها هنا أن السكاكى - وقد فصل بين علمى المعانى والبيان، وأطلق عليهما هذين الاسمين - لم يعرض للألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين ، بل نراه يذكر ضمن هذه المحسنات والإلتفات ، والإيجاز ، والإطناب ، وينبه القارىء إلى أن هذه الألوان قد سلف الحديث عنها فى علم المعانى » (٢) .

ولعل هذه العبارة - فوق أنها تبرىء ساحة أبى يعقوب من هذه التبعة - لعلها توحى بأن مراده بالمتأخرين من أتى بعد السكاكى، وتدفعنا إلى التساؤل : فمن أولئك؟ ولكنه يريحنا من عناء هذا التساؤل قائلا بعد أن جمع بين السكاكى

---

(١) الصبغ البديعى ص ٤٧٠ ط دار الكاتب العربى سنة ٩: ١٩ .
(٢) الصبغ البديعى ص ٢٥٢ .

وابن الأثير . وابن أبي الإصبع فى ربقة(١) واحـــدة : « وبهؤلاء المؤلفين الثلاثة ... تنقطع الصلة بين المتقدمين الذين غلبت عليهم الصبغة الأدبية، وبين المتأخرين الذين غلبت عليهم الصبغة النظرية وتمضى البلاغة مثقلة بأعباء المنطق والفلسفة وفى ذيلها البديع »(٢) .

ولا تستوقفنا قضية البلاغة المثقلة بأعباء المنطق والفلسفة؛ فليست قضيتنا الآن ، وإنما تستوقفنى عبارة : (وفى ذيلها البديع) . . فليس مفهوما من نتائج المنطق والفلسفة فيما أرى ، وإنما هو نتيجة بدهية لطبيعته ومدى أثره فى التعبير ، ومع التسليم بأنه من نتائجهما فعلى من تقع التبعة: تبعة فصل البديع واعتباره حلية شكلية وزينة عارضة (فى ذيل البلاغة) يبرأ منها السابقون ومن بينهم السكاكى ؟

إن أول هؤلاء الذين تقع عليهم تلك التبعة جلال الدين القزوينى الملقب بالخطيب (م ٧٣٩ هـ) كما يرى أستاذنا الجليل ؛ إذ يصرح بنسبة الجناية إليه من خلال دراسته للتلخيص فيقول : « نظرة إلى هذا الصنيع ـ ترتيب الكتيب على مقدمة وثلاثة فنون وخاتمة ـ تقنعنا على مبلغ تجديد الخطيب بالنسبة إلى البديع ؛ فقد جعل البديع علما مستقلا عن أخويه اللذين طالما خالطهما جميعا أو جمهور مسائلهما منذ عهد التأليف فيه إلى عصر الخطيب ، فكان بهذا العمل أول الجانين على ألوان البديع ممن ألفوا فى البلاغة بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض »(٣) .

إن فصل البديع عن أخويه جناية الخطيب ، فى رأى العلامة الكبير ، وفى كون الفصل جناية ومن فعل الخطيب تجاوز للحقيقة وتأى عن الصواب

---

(١) توفى السكاكى سنة ٦٢٦ هـ ، وابن الأثير سنة ٦٣٧ هـ وابن أبى الإصبع سنة ٦٥٤ هـ .

(٢) الصبغ البديعى ص ٣٠١ . (٣) الصبغ البديعى ص ٣٠٤ .

فيما أعتقد ؛ لأن تميز فنون البلاغة بعضها عن بعض تمتد جذوره إلى بداية عصر التأليف فيها وعلى الأخص عندما ألف ابن المعتز كتابه البديع كما سيتبين فيما بعد . وهو ليس جناية إذ للجمال عناصره ، ولكل عنصر قدره هذه واحدة .

وأخرى هى : أننا إذا نظرنا إلى مانقلناه عن «الصبغ البديعى» لايقنا أن السكاكى خطا خطوة واسعة فى سبيل تميز أصباغ البديع ، حيث إنه فصل بين علمى المعانى والبيان وأطلق عليهما هذين الاسمين ـ كما ذكر ذلك أستاذنا ـ يقول « فهذا الحصر بعد التحديد للعلمين جعل هذه المحسنات لاتندرج ضمن مسائل العلمين (١) فعلى من تقع الجناية إن كانت هناك جناية ؟

نحن لاننكر أن أصباغ البديع تتضافر مع مسائل العلمين فى البلوغ بالكلام إلى أعلى درجات التحسين والتزيين ـــ كما يرى أستاذنا ـــ ولكن لها قدراً لاتعدوه ، ودوراً لاتتجاوزه ، وهذا مانفهمه من السكاكى حين يصرح بأن علمى المعانى والبيان هما مرجع البلاغة وأعون العلوم على بيان وجه الإعجاز فى كتاب الله . وإلا فلم لم يكشف عن أثره فيهما ـــ أعنى بلاغة التعبير والإعجاز ؟

ولنستمع إليه بعد أن جلا وجه الجمال فى قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى) يقول : «ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت فلعل ماتركت أكثر مما ذكرت ؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمى المعانى والبيان ، وأن لاعلم فى باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطى تأويل مشتبهاته ولا أنفع فى درك لطـــائف نكته وأسراره . ولا

---

(١) المرجع السابق .

أكشف للقناع عن وجه إعجازه هو الذى يوفى كلام رب العزة من البلاغة حقه . ويصون له — فى مظان التأويل — ماءه ورونقه » (١) .

فها نحن أولاء نرى أبا يعقوب بعد أن بين جهات النظر الأربع فى الآية الكريمة وهى : جهة علم المعانى وجهة علم البيان — وهما كما رأينا مرجع البلاغة عنده ، وجهة الفصاحة المعنوية ، وجهة الفصاحة اللفظية — وهما — كما يفهم من سياق كلامه — أصباغ البديع بنوعيها — نراه بعد أن بين هذه الجهات — يعود ليقصر الكشف عن وجه الإعجاز على المعانى والبيان . فأين دور البديع فى الكشف عن وجه الإعجاز ؟ .

إن السكاكى بين وجه الفصاحة المعنوية واللفظية ، ولكنه لم يجعل لهما دخلا فى الإعجاز ، وهذا يعنى أنه يدرك أثر هذه الأصباغ . ويوقن بأنها أقل من أخويها ، ولذلك كان حديثه عنها رمزا وإشارة ؛ لأنها لا تحتاج إلى أكثر من الرمز والإشارة لوضوحها وبساطة أثرها . ونقرر هنا أن ما نقلته عن المفتاح هنا يقرب مما سنراه فى مقدمة الكشاف حين يحين الموعد مما يدل على أن السكاكى ومن جاء بعده لم تكن لهم جناية ، بل لم تكن هناك جناية أصلا ، وإذا كان الرجل قد أدخل الالتفات والإيجاز والإطناب والمساواة فى المعانى ثم أشار إليها فى المحسنات : فذلك لبقاء شىء من الغيم فى البحث البلاغى حال دون الفصل التام بين الفنون الثلاثة وهذا ما تولاه من خلف السكاكى على البحث .

نخلص من ذلك إلى أنه لم يكن هناك جور على البديع من أحد . وأن ماسمى بالاقتصاص له تجن على البرآء .

---

(١) المفتاح ط الطوبى سنة ١٣٤٨ هـ — ص١٧٧ — ١٧٨ .

مع الدكتور حفنى شرف

ومن الثائرين على دور البديع فى تجميل الأسلوب الدكتور / حفنى محمد شرف ، ففى دراسته « الصور البديعية بين النظرية والتطبيق » عايش هذه الأصباغ منذ نشأ بها تاريخياً ملتفتاً بين حين وآخر إلى نماذج تطبيقية ، وأنهى هذه الدراسة بحديث طويل استغرق نحواً من ثلاثين صفحة عنوانه « التحسين البديعى بين الذاتية والعرضية » واستنبط من هذا الحديث قضية كان هو ممثل الادعاء فيها فألقى التهمة على كل من أشار إلى دور هذه الأصباغ فى صنع التعبير من عصر السكاكى إلى عصرنا ، ومع أنه قام بدور المدعى فإنه تقمص دور القاضى ، فأدان كل من اتهمهم إدانة سنعرف مدى مافيها من حسم ونحن نتابع دور هؤلاء الجناة .

وأول من مثل أمام هذه المحكمة الغريبة أبو يعقوب يوسف السكاكى . يقول ممثل الادعاء فى الاتهام « فقادها فى وضوح أن يفصل بين هذه البحوث البديعية ، وأن يتقدم بها خطوة لتتوزع بين علوم البلاغة العربية : المعانى والبيان والبديع . وإن كان الزمخشرى ، قد سبقه إلى تقسيم البلاغة إلى معان وبيان(١) .

لقد خطا أبو يعقوب بالبلاغة خطوة فى اتجاه التقسيم والفصل ، وذلك يعنى أن القسم الثالث منها دون أخويه . وأن تحسين أصباغه عرضى ، وكان على الرجل أن لايخدع بصنيع الزمخشرى وهذه هى مبررات الإدانة التى يصدرها قائلا : « إذن نستطيع أن ندين السكاكى فى جناية التمزيق للبـــلاغة . ذلك الذى ظهرت آثاره فيمن بعده ؛ إذ أتوا إلى علم البديع فساروا فى ركبه ، وترسموا خطاه ، وفصلوا علم البديع عن أخويه فى نظرهم ، بل تجاوزوا ذلك إلى أن جعلوه ذيلا لعلوم البلاغة ، وجعلوا تحسينه عرضياً لاذانياً » ؟

لقد خطا السكاكى فى أثر الزمخشرى فاستحق أن يدان ؟ لأنه أغرى من

---

(١) الصور البديعية . قسم ثان ص ٢٥٨/٣٥٩ — ط أولى سنة ١٩٦٦ .

جاء بعده فترسموا خطاه . وليت شعرى لم لم تكن التبعة على الزمخشرى الذى سبق إلى التقسيم ؟

رحم الله أبا يعقوب ، فقد أسىء إليه من حيث كان يستحق الثناء ولا أدل على ذلك من الحكم الذى صدر فى تلك القضية ؛ فإنه يشير إلى تجنى القاضى فى حكمه ، ولذلك يعود فيقول :

« أما الجانب الثانى لتصرف السكاكى فهو يبرئه من نتائج فكرة التمزيق ، ويخفف من ويلات الحكم عليه ، وإن كنا ندينه كل الإدانة ؛ إذ ألقى بقنبلة التمزيق ... التى جعلته أشلاء ممزقة ، وأنواعاً رخيصة ألقى بها على جوانب الطريق الأدبى الذى يسير فيه الأدباء ... إذ قال فى كتابه « المفتاح » بعد أن فرغ من عرض المحسنات اللفظية ، وأصل الحسن فى جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعانى لا أن تكون المعانى لها توابع أعنى ألا تكون متكلفة »(٢) .

وليس لى من كلمة أقولها تعليقاً على هذا الحكم سوى أنه ناشىء عن عدم اقتناع بهذه القضية المفتعلة ؛ لأن القائلين بأن أدوار البديع ثانوية لم يقبلوا منها إلا ما كان ناشئاً عن طبع سليم يحسن صاحبه أن يضع الحلى فى موضعه . وليس هذا بأقل مما ذهب إليه أدعياء الذاتية فى تحسين هذه الأصباغ .

وثانى المتهمين فى هذه القضية أمام تلك المحكمة الخطيب القزوينى .

وفى دور الادعاء يقول المدعى العام والقاضى : ولنرى مقدار إدانته أو براءته فى تلك القضية بوضوح نرجع إلى تعريفه للبلاغة الذى يخلص منه إلى رأيه فى تعريف البديع فيقول فى كتابه « الإيضاح » إن البلاغة فى الكلام

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٠

مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره . والثانى — أعنى التمييز — منه ما يتبين فى متن اللغة أو التصريف أو النحو أو يدرك بالحس وهو ماعدا التعقيد المعنوى . وما يحترز به عن الأول — أعنى الخطأ — هو علم المعانى .

وما يحترز به عن الثانى — أعنى التعقيد المعنوى — هو علم البيان . ومايعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع . ثم يقول — يعنى الخطيب — فى موضع آخر معرفاً للبديع : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة » .

ثم يوجه الأنظار إلى معالم تلك الجريمة فيقول : « وكذا قال الخطيب ، ونحس من كلامه أنه زاد فى جزيرة السكاكى ففصل البديع عن أخويه فصلا تاماً وقصره على ألوان خاصة ، وتم له ماأراد . وانصرفت الأذهان والهمم عن هذا العلم حتى أصبح لايدرس إلا لما مافى دور العلم ، وإن درس فشىء منه لايذكر » (١)

ولست فى حاجة إلى بيان أن ماذكره الخطيب ليس تعريفاً للبلاغة — كما هو مفهوم لفظ التعريف — وإنما هو تبيان لمصادر الإشعاع فى الأسلوب البليغ أو للأدوار التى تؤديها علوم متعددة هى : علم اللغة ، والتصريف ، والنحو وفنون البلاغة الثلاثة يؤازرها الحس فى خلق هذا الأسوب . ليس هذا مهماً ، وإنما المهم أن ندرك أنه يقدم أسباب الإدانة ليصدر الحكم فيقول : « إنه قد جنى جناية كبرى على البديع » (٢) .

وقد اعتبر الدكتور حفنى بهاء الدين السبكى محامياً يعارض فى الحكم الذى

(١و٢) الصور البديعية قسم ثان ص ٣٦١

أصدره ، وتمثلت هذه المعارضة — عنده — فى قول السبكى: «إن المراد بقوله — يعنى الخطيب — : بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ووضوح الدلالة يحتمل أن يراد به بعد معرفه رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة ويكون المراد هو قواعد يعرف بها وجوه تحسين الكلام، وإذن يكون المعانى والبيان جزأين للبديع ، ويحتمل أن يراد به : قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه تحسين الكلام فلا يكون المعانى والبيان جزأين للبديع بل مقدمتين له وقد صرحوا بأن المراد هو الأول — والحق الذى لاينازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من التطبيق للكلام على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأول برهان على ذلك أنك لاتجدهم فى شىء من أمثلة البيان يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد ، بل تجد كثيراً منها خالياً عن التشبيه ، والاستعارة والكناية التى هى طرق علم البيان. هذا هو رأى الإنصاف ، وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين .

ولنترك الدفاع وفكره ، فليس يعنينا كثيراً ولننظر إلى الحكم فسنجده يحمل طابع التردد — كنظيره على السكاكى — وينم عن شعور بالتجنى فى أعماق الناطق به . بل إنه ليعلن عن تردده وهو يعرض تعليق الخطيب على قول الفرزدق :

لعن الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون على نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وفى هذا العرض قال: «يقول الخطيب : وفى البيت الأول تكميل حسن ؛ إذ لو اقتصر على قوله (لا يغدرون) لاحتمل الكلام ضربا من المدح ، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة فقال : (لا يفون) ليفيد أنه للعجز كما أن ترك الوفاء للؤم ، وحصل مع ذلك إيغال حسن ، لأنه لو اقتصر عل قوله

(لايغدرون ولا يفون) تم المعنى الذى قصده ، ولكنه لما احتاج إلى القافية أفاد بها معنى زائدا حيث قال (لجار) ، لأن ترك الوفاء للجار أشد قبحاً من ترك الوفاء لغيره .

وبعد العرض يعلن أن هذا الموقف جاء من الخطيب على غير توقع ، كما هو نص عبارته — وهذا الموقف — فى رأيه — « يثبت أن الخطيب فى كلامه هنا يناقض رأيه هناك ، إذ أن التكميل والإيغال و هما من المحسنات » . فى هذين البيتين قد أفاد معنى زائداً لولاه لا نقلب الغرض من ذم بنى كليب إلى مدحهم(١) » .

ولنترك الحكم يفصح عن عدم اقتناع صاحبه بأسبابه و نتساءل : التكميل والايغال من المحسنات أم من غيرها ؟ وإذا كانا من المحسنات فعلى اصطلاح من ؟ الخطيب أم غيره ؟

إن الرجل لم يذكر التكميل والإيغال ضمن أنواع البديع عنده ، ولكنه تحدث عنهما فى نطاق الإطناب كصورتين من صوره ، وقد ورد هذان البيتان والتعليق عليهما فى الجزء الخاص بألوان البديع ، ولكن كمثال للطباق اللطيف ، وقد سبقهما بيتان أحدهما لابن رشيق والثانى للقاضى الأرجانى(٢) . وقد بين سر اللطف وهو أنه أثر التكميل والإيغال شأنهما فى ذلك شأن الاستعارة عندما تلعب دورها فى إظهار جمال الطباق .

وفى قائمة المتهمين فى هذه القضية القاضى أبو بكر الباقلانى صاحب « إعجاز القرآن » ، وخير الدين الأسدى صاحب كتاب « البيان والبديع »

---

(١) الصور البديعية قسم ثان ٣٦٣/٢٦٤ .

(٢) بغية الإيضاح ١٥٤/٢ و ١٥٩ ، ٤ / ٦ ، ٧ .

وعلى الجارم صاحب كتاب ـ البلاغة الواضحة .

فقد نقل الدكتور حفنى عن الدكتور على الجندى من كتابه « فن الاسجاع » إنكار الباقلانى لوجود السجع فى القرآن الكريم ، واعتبر ذلك جناية على البديع . وجناية على القرآن الكريم(١) .

ونغض النظر عن الاضطراب فى سوق أسماء المنهيين على حسب ترتيبهم الزمنى . فالثالث توفى قبل الأول بما يزيد على قرنين من الزمان(٢) ؛ لأن ذلك أمر شكلى ، ولكننى أقول : إن نظرة الباقلانى إلى البديع تتسع لتشمل ألوان البيان ؛ فهو يقول : « ومن البديع فى الشعر طرق كثيرة ... فمن ذلك قول امرىء القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

قوله (قيد الأوابد) عندهم من البديع ومن الاستعارة » و « مما يعدونه من البديع التشبيه(٣) » وإذا كان الباقلانى ـ بدافع من الحرص على إثبات إعجاز القرآن ـ قد نفى أن يكون فى القرآن سجع لأن المعنى يتبع فيه اللفظ ـ كما يقال ـ فليس يعنى هذا أن الرجل قد جنى على كل صور البديع ، وله فيما ذهب إليه من العذر متسع ؛ لأن السجع حلية لفظية بلا شك ، ولا تحسن إلا إذا جاءت عفوا غير متكلفة وما زلنا إلى الآن نسمع من ينظر إلى السجع شزرا حتى من المتأخرين على فصل البديع ، والرافضين مصطلح

---

(١) الصور البديعية قسم ثان ٣٦٤/٣٦٥ .

(٢) توفى الباقلانى (٤٠٣ هـ) والسكاكى (٦٢٦ هـ) والخطيب (٧٣٩ هـ) .

(٣) إعجاز القرآن على هامش الاتقان ٢ / ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ط الحلبى سنه ١٩٧٨ .

المحسنات يقول ماهو بكلام الباقلانى أشبه ، ومن هؤلاء الدكتور رجاء عيد وذلك إذ يقول : « فى جميع الأحوال لا تسعف اللغة من حيث دوران كلماتها على الألسنة ، وإدراك معانى ألفاظها لا تسعف السامع على أن يقيم سجعه إلا إذا تكلف الغريب . وذلك المأزق لا مهرب منه أحـــد . وهذه الحفرة لابد من أن تزل بها الأقدام . فاتفاق الفواصل فى الحروف أو فى الوزن أو فى مجموعها تكلف ولجاجة وتصنع ردىء » (١) فإذا قرر الباقلانى أن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجـــوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، (٢) لم نسنا له عذرا وأى عذر ولا نستطيع أن نسلكه فى زمرة الجناة إن كانت هنـــاك جناية وجناة !

وإذا سألنا الدكتور شرف عن جناية خير الدين الأسدى لذكر لنا أنه « يتحدث حديثا طويلا عن البديع كله تجن عليه وهضم لحقوقه . . فتراه يتجنى عليه أولا إذ يعرفه فيقول : إن البديع فن يصار إليه للتلاعب بالألفاظ ثم انظر معى إلى ... تلك السخرية اللاذعة التى رزىء بها البديع على لسان أستاذ كهذا إذ يقول وقصارنا نحن من دراسة هذه الألاعيب المسماة بالبديع أن نقف على ناحية من نواحى تفنن أولئك الأوائل ومن لف لفهم ... لنعلم أن روح عصرنا لا تجيز لنا أن نتأسى بالبديعيين فى عبثهم هذا على ما فيه من براعة أحيانا »(٣)

وأحسب أن خير الدين الأسدى لا يتجنى ؛ فإن أولئك البديعيين الذين

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ص ٢٢٦/٢٢١ — ط منشأة المعارف بالاسكندرية .

(٢) إعجاز القرآن على هامش الاتقان ١/١٠٩

(٣) المصدر قسم ثان ص ٦

شغفوا بالحلى البديعى ولم يسعفهم الطبع قد نزلوا به إلى درك العبث . فإن حلى البديع يجب أن يستعمل بقدر ، وإلا صار الكلام لعبا لا أدبا ، وماذا يصنع السوار الجميل حين تلبسه طفلة لاهية فى موضوع الخلخال ؟ لا شىء . بيد أنه لو أحاط بالمعصم ضاعف من جماله ، وهذا ما يعترف به الأسدى ، ففيه — كما حكى عنه — براعة أحيانا .

أما الأستاذ على الجارم فإن فى رأيه ازدواجية فى تقدير الفن البلاغى ، وأثره فى التعبير ، فهو من أنصار التحسين الذاتى إذ يقول : « إن البلاغة تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة لها فى النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذى يقال فيه . والأشخاص الذين يخاطبون به .

فليست البلاغة قبل كل شىء إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطرى . ودقة إدراك الجمال وتبين الفروق الحقيقية بين صنوف الأساليب فعناصر البلاغه إذن لفظ ومعنى ، وتأليف للألفاظ ومنحها قوة وتأثيرا وحسنا ثم دقة فى اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته ، وحال السامعين ، والنزعة النفسية التى تتملكهم وتسيطر على نفوسهم » ثم هو من المقتنعين بفكرة التحسين العرضى إذ يقول عن البديع : « إنه ناحية أخرى من نواحى البلاغة لا تتعدى تزيين الألفاظ أو المعانى بألوان من الجمال اللفظى أو المعنوى »

وليس عندى ما أقوله ردا على التناقض المفتعل سوى أننا لو تأملنا قول الجارم إن البلاغة فن يعتمد على إدراك الجمال وتبين الفروق الحقيقية بين صنوف الأساليب وذكرنا أنه عد من عناصرها تأليف الألفاظ ومنحها قوة وتأثيراً وحسنا — لأدركنا أنه يشير إلى أن بعض فنون البلاغة يعين على تأليف العبارة القوية ، وبعضها يمنحها تأثيرا ، وبعضها يضفى عليها حسنا فإذا قال عن البديع « إنه ناحية أخرى من نواحى البلاغة لا تتناول مباحث علم

البيان ، ولا تنظر فى مسائل علم المعانى ، ولكنها لا تتعدى تزيين الألفاظ أو المعانى ، لم يكن متناقضا ، ولم نجد عنده ازدواجية فى الرأى بل نرى ثقوب النظر واستقامة الفطرة فى إدراك أثر كل فن فى القول الجميل .

وينبغى أن أشير إلى أن الدكتور حفنى شرف يقتفى أثر أستاذنا الدكتور أحمد موسى فى هذه الفكرة — فكرة العرضية والذاتية — يدرك ذلك من يقرأ الصبغ البديعى ، والصور والبديعية .

كما ينبغى أن أذكر أنه فى غمرة الحديث قد ينسى الفكرة فينطق بالحقيقة فى طبيعة البديع وأثره .

ومن ذلك ما ذكره عن صبغ الترصيع بعد دراسته تاريخيا حيث قال : « وأخيرا بعد هذه الدراسة التاريخية لهذا اللون انتهيت إلى أن الترصيع من الألوان اللفظية التى تأتى فى الشعر والنثر » وما ذكره عن التصريع حيث قال « وقد يكرر فى أثناء القصيدة ولكن تكراره يجب أن يكون بعيدا عن القصد والكلفة ، ولذلك حسن التكرار من الشعراء القدامى لفطرتهم وبعدهم عن التعقيد والكلفة وكره من المحدثين لقصدهم إلى المحسنات والتكلف .

فاذا كان لا يشك فى أن التحسين والتزيين أمر عرضى (١) كما هو نص عبارته كان لنا أن نقول : إن الحكم بذاتية التحسين فى أصباغ البديع رأى تأباه طبيعتها .

مع الدكتور / محمد أبى موسى

ومن الثائرين على عرضية البديع الأستاذ الجليل الدكتور محمد أبو موسى .

فى سياق حديثه عن تحليل الزمخشرى الآية الكريمة (وقيل يا أرض

---

(١) الصور البديعية قسم ثان ص ٢٠٢/١/٣٤١/٩٦٩

ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) وذهابه إلى أن الجمال البلاغى فيها مرده إلى النظم والتصوير لا إلى التجنيس بين الكلمتين (ابلعى وأقلعى)

— فى سياق حديثه عن ذلك يقول : « قد يتوهم أن الزمخشرى بهذا يضع من مكانة ألوان البديع فى الإعجاز القرآنى ، والحق أننا لا نسمع منه هذه النغمة إلا فى فن الجناس ، وذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء فى عصره إلى هذا الفن حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة .

فهو بهذا يشير إلى أن ما جاء فى القرآن من هذا اللون لم يكن سر بلاغته كما جعلتموه سر بلاغتكم ثم يقول . « ولما ذكر الزمخشرى علم المعانى وعلم البيان وسكت عن علم البديع زعم السيد الشريف أنه يرى أن البديع ذيل لعلمى المعانى والبيان . ولست أدرى كيف يفهم هذا من كلام الزمخشرى الذى لم يشر إلى أن المعانى والبيان رأس البلاغة حتى نفهم أنه اعتبر البديع ذيلا »

ويشير إلى لمحات من تحليل الزمخشرى لبلاغة اللف والنشر ، والمشاكلة ، ويتخذ منها أدلة يعتمد عليها فى إبطال زعم السيد الشريف ثم يفصح عن رأيه فى أصباغ البديع فيقول : على أننا لا نحسب عبارة الزمخشرى فى الجناس وأنه مما سماه المحدثون البديع مسقطة له ، لأنها نظرة إلى عبارة الجاحظ فى الاستعارة وأنها مما سماه المحدثون البديع ، فكما أن عبارة الجاحظ لا تسقط القيمة البلاغية لفن الاستعارة فكذلك عبارة الزمخشرى لا تسقط القيمة البلاغية لفن الجناس ، أو لفنون البديع .

وقد ذكر الزمخشرى فى الترشيح أنه من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وأن الكلام الذى يتأنى فيه هذا الفن تأنيا طبعا يتلاحق لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا . فإذا كانت الاستعارة مظهرا من مظاهر الإعجاز البيانى ، أو سرا من أسرار البلاغة ، فهل يمكن القول بأن

الترشيح — وهو ماؤها ورونقها — ليس مظهراً من مظاهر الإعجاز وليس سرا من أسرار البلاغة ، وإنما هو ذيل تابع للبلاغة فى مفهوم الزمخشرى (١)

على هذا النمط يحاول الباحث الدقيق أن يدفع بأصباغ البديع إلى مصاف الاستعارة فينفى عن الزمخشرى أن يكون قد نظر إلى البديع على أن له دورا ثانوياً فى تجميل الأسلوب ، وينكر على السيد الشريف فهمه من سكوت صاحبه عن البديع أنه ذيل لعلمى المعانى والبيان ، ثم يتشبث بتعبيره عن اللف والنشر بأنه فن دقيق المسلك ، وعن المشاكلة بأنها فن من فنون البلاغة ، وعن الترشيح بأنه من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، ومن ذلك يصل إلى غايته التى رمى إليها .

ومن البداية نقرر أن أحدا من رجال البلاغة لم يسقط القيمة البلاغية لصيغ من اصباغ البديع جناساً كان أو غيره ، لأن فنون البلاغة ثلاثتها يؤازر بعضها بعضا فى خلق التعبير البليغ ولكن مدى مايقوم به كل فن هو محل النظر .

ومن ثم كان سكوت جار الله الزمخشرى عن البديع متسقاً مع رؤيته لأثره المحدود بالنسبة لأخويه .

وهذا ما نلمسه من صريح حديثه إذ يقول فى فاتحة كتابه « ثم إن أملأ العلوم بما يعمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه . ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى . وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى — ط دار الفكر العربى ص ٤٨٢ — ٤٨٤ — ٤٨٥

لطائف الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله . (١)

فى هذه العبارة يجعل الزمخشرى المعانى والبيان مختصين بكتاب الله يكشفان عن لطائف معانيه ويشيران إلى دقائق إعجازه .

وإذا كانت فنون البلاغة ثلاثتها متوازية الأقدار ، متساوية الأدوار فى تحسين العبارة وتجميلها فأين دور البديع فى كشف هذه اللطائف ، والإشارة إلى دقائق الإعجاز ؟ وإلى أى مدى يبلغ قدره ؟ ولم سكت الرجل عنه ؟

إن حديثه هذا — فيما أرى — يدل على أن دور هذه الأصباغ يقصر عن دور المعانى والبيان .

وأن قدره يتضاءل عن قدرهما ، وهذا ما صرح به فى شأن الجناس — كصبغ — فى أثناء حديثه عن وجوه البلاغة فى الآية الكريمة (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) حين قال : « ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ، ورقصوا لها رءوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما : ابلعى وأقلعى — وإن كان ذلك لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور » (٢)

إن الزمخشرى يبين الأثر الذى يخلعه الجناس على التعبير ؛ فهو — وإن كان حسنا — لا يسامت الحسن الأصيل فى المعانى والبيان ، لأنهما لب ، وما عداهما قشور (٣) ، وليست هذه المقولة قاصرة على الجناس وحده ، وإنما هى صادقة على كل أصباغ البديع ، وعلى هذا فاللف فن دقيق المسلك ، والمشاكلة

---

(١) الكشاف ١/١٥ / ١٦ / ١٧ ط دار إحياء الكتب العربية

(٢) الكشاف ١/٥٣/٥٤

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٢ .

فن من فنون البلاغة، ولـكنهما ـ وبقية أصباغ البديع ـ بالقياس إلى دقة النظم (المعانى) وروعة التصوير (البيان) قشور ومن ثم لا أجد سببا للإنكار على السيد الشريف حين فهم ما فهم ، بل لا أفهم أنا كيف أن الزمخشرى — مع هذا القول الصريح — لم يشر إلى أن المعانى والبيان هما رأس البلاغة ؟ وإذا كانت عبارة الزمخشرى فى الجناس ناظرة إلى عبارة الجاحظ فى الاستعارة ، وأنها بما سماه المحدثون البديع فلم كانت محاسن الاستعارة وغيرها من صور البيان وخصائص التراكيب هى اللب وما عداها قشورا ؟

ولا أستطيع أن أسلم للعلامة الفاضل بأن الترشيح هو ماء الاستعارة فماؤها فى ذاتها، وإنما هو من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا — كما يقول الزمخشرى وتجعله أكثر ماء(١) ،فهو بنص عبارته يزيدها ماء ، وليس يكسبها ماء كانت تفتقده ، أى إضافة إلى الأصل وليس أصلا ثم هل الترشيح من أصباغ البديع ؟ وإذا سلمنا بذلك — جريا مع الراغبين فى الحكم ـ فهل يكون تجريد الاستعارة من هذه الأصباغ إذا كان جاريا على نسق المجاز كما فى قوله تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وقول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

حيث استعيرت الإذاقة للإصابة بعذاب الجوع وهى تجريد للاستعارة فى « لباس الجوع » واستعير الغمر لكثرة العطاء وهو تجريد للرداء، المستعار له ، فهذا التجريد — فيما أرى — يجعل الاستعارة أكثر ماء ورونقا ؟

على أننا نذكر العلامة الباحث الدقيق بما قرره عن الزمخشرى بأنه « يتساهل فى استعمال المصطلحات العلمية التى حدد هو مدلولها ، ومرجع هـذا — كما

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٣/٥٤ .

يقول — ميله للمعنى اللغوى الذى يعدل به كثيرا عن الاصطلاح المحدد ، (١) حيث أطلق لفظ التمثيل على صور من التشبيه والاستعارة فى المفرد، والاستعارة بالكناية ... الخ ، فإذا كانت عبارته عن الجناس ناظرة إلى الجاحظ عن الاستعارة ، وإذا عبر عن الترشيح بأنه من الصنعة البديعية ، فإنها من باب التساهل ، ولسنا نحتكم فى اعتبار الترشيح من البديع إلى ابن أبى الإصبع وغيره ممن أغرموا بالكثرة ، بل نحتكم إلى أساتذتنا الذين تحدثوا عن الألوان التى يصدق عليها وصف البلاغة(٢) ، ثم إن الترشيح قد يكون فى التورية ، وهذا يعنى أنه ليس صبغا يتمتع بالاستقلال ، وأحسب أنه أصبح لدينا الآن فكرة واضحة عن دور الأصباغ فى التعبير فى حقيقة أمرها وفى تصور الزمخشرى لها، ومن ثم لا نسلم القول الذى يذهب إلى أننا لانسمع منه - يعنى الزمخشرى - هذه النغمة إلا فى الجناس ، وإلا فإننا سنجد أنفسنا أمام مقولة صادرة من صاحب هذا القول . تسلم بأن الزمخشرى ليس له حديث عن التورية فى تفسيره إلا إشارة غامضة ؛ لأن : « هذا راجع إلى أن هذا اللون البديعى لم يكثر فى القرآن الذى جرى أسلوبه على أعراق البلاغة الأصلية متسما بوضوح الفطرة الإنسانية الصادقة(٣) » ، فحين يجرى القرآن فى أسلوبه على أعراق البلاغة الأصلية ، فإنه ينأى عن التورية كصبغ ليس من أعرافها فهل يعنى ذلك أن التورية ليست من فن البديع ؟ أم أنهما منه بيد أنها كبقية ألوانه لها دور معين لا تعدوه ؟

أعتقد أن ألوان البدع — ومنه التورية — له أثر لا يرقى إلى درجة

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٤٢٣/٤٢٤ .
(٢) الصبغ البديعى ص ٤٦٩ وما بعدها .
(٣) البلاغة القرآنية ص ١٩٤ .

المعانى والبيان ، ومن أجل ذلك رأينا النقاد يستحسنون إذا استخدمت بمهارة وحذق حتى لا يذهب حرص الأدباء عليها إلى حد التكلف فيسيئون من حيث أرادوا الإحسان كما قال أحمد بن عبد الله عن أبى تمام : « ولما أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع فى القبيح ، وهو يريد أن يبدع فى الحسن » (١) .

• • •

هذا وأستطيع أن أقول فى شىء من الاطمئنان إن أصباغ البديع لا يسيغ الذوق أن يضعها فى درجة واحدة مع فنى المعانى والبيان ؛ لأن أثرهما فى التعبير لا يرقى إلى أثرهما فى تقدير كثير من رجال البلاغة قديما وحديثا ، وهم فى رهافة الحس ، وصفاء الذوق بحيث تكون إشارتهم ذات قدر ، وخطر فى تمييز الفنون البلاغية بعضها عن بعض ، وفى تقدير أثرها فى التعبير الأدبى .

ويحسن بنا أن نستعرض صنيعهم فى هذا السبيل عسى أن يكون فيه مقنع لأصحاب الرأى والفكر فى الحقل البلاغى ، ويسلموا بما إليه ذهبت .

---

(١) إعجاز القرآن — هامش الإتقان جـ ١ ص ١٩٠ — ط الحلبى سنة ١٩٧٨ .